"التصوف وعلوم العربية منظومة: الجوهر المكنون في صدف الثلاثة فنون أنموذجا"

"Sufism and Arabic Sciences: The essence hidden in the seashell of the three arts a model"

عمارية سنوساوي[1]، حياة عمارة[2]

[1] جامعة أبي بكر بلقايد– تلمسان (الجزائر)، الإيميل: ammariya13@gmail.com

[2] جامعة أبي بكر بلقايد– تلمسان (الجزائر)، الإيميل: hayeteamara1968@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2022-03-24 **تاريخ القبول**: 2022-05-30 **تاريخ النشر**: 2022-12-31

ملخص: يتناول هذا البحث المقامات الصوفية التي ركز عليها العلامة الموسوعي عبد الرحمن الأخضري البسكري الجزائري المالكي في منظومته "الجوهر المكنون في صدف الثلاثة فنون" والذي دعم فيه الدرس البلاغي بأمثلة من الفكر الصوفي المبني على أصول صحيحة مرتكزة على القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، فقد جعل من منظومته التعليمية، أداة لترسيخ قواعد التصوف السني الجامع بين الشريعة والحقيقة، مُتِمّا بذلك ما بدأه الشيخ زروق الفاسي، ومضى عليه الشيخ الخروبي في محاربة البدع والخرافات التي ألصقت بالتصوف، فأضلت الناس وأبعدتهم عن الدين الإسلامي الحنيف بالأخص في القرن العاشر الهجري.

الكلمات المفتاحية: المقامات؛ التصوف؛ عبد الرحمن الأخضري؛ الصوفي الجزائري؛ الجوهر المكنون.

Abstract : This research deals with the maqamat of Sufism that the Algerian encyclopedic scholar Abd al-Rahman al-Lakhdari al-Biskari al-Maliki focused on in his systems," The essence hidden in the seashell of the three arts"who supported the rhetorical lesson with examples of Sufi thought based on sound principles from the Holy Qur'an and the Sunnah of the Prophet. Sunni Sufism that combines Sharia and made its educational system a tool for consolidating the rules of Sufism, combining Sharia and truth, similar to what Sheikh Zarrouk Al-Fassi started and Sheikh Al-Kharroubi went on to fight myths that were attached to Sufism, ignorant people and kept them away from the true Islamic religion, especially in the tenth century AH.

Keywords: Maqam; Sufi; Abd al-Rahman Al-Akhdar; Algerian Sufi; The essence is hidden.

المؤلف المرسل: عمارية سنوساوي، **الإيميل**: ammariya13@gmail.com

1- مقدمة:

يعتبر التصوف مكونا أساسيا له روافده الراسخة في موروث الجزائري الذي انطلق من تراثه الإسلامي مستندا لنشأته الدينية، فقد بدأت بذور التّصوف في الجزائر بالزهد الذي مثله بكر بن حماد التاهيرتي، ثم واكب التطور الحاصل في التجربة الصوفية المرتكزة على مبادئ الشريعة ومنها ترتقي في مدارج الحقيقة التي تبدأ من مقام الإسلام لتنتقل إلى مقام الإيمان وتسمو في مقام الإحسان، جامعين التصوف بالكتاب والسنة، يؤكد ذلك عبد الواحد بن عاشر في متنه:

"فِي عقْدِ الأَشْعَرِي وَفِقْهِ مَالِكٍ ❁ وَفِي طَرِيقَةِ الجُنَيْد*السَّالِك" (ابن عاشر، 1925، ص03)

* الجُنَيْد: هو أبو القاسم الجنيد بن محمد سيد الصوفية علما وعملا، وإمامهم وأصله من نهاوند من كلامه رضي الله عنه "الطريق إلى الله تعالى مسدود على خلقه إلا على المقتفين أثار رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن لم يحفظ القران وكتب الحديث لم يقتد به في هذا الأمر لأن علمنا مقيد بالكتاب والسنة".

فكان مطية السالك في طريق التصوف أخذ النّفس بالرياضات، والمجاهدات، فينتقل من حال إلى حال، ومن مقام إلى مقام أعلى ملتمسا القرب من الحق تبارك و تعالى، ولكن في عصر الضعف والتشتت، استغل ضعاف النفوس جهل العامة فنشروا البدع والخرافات، وحولوا مسار التصوف من الارتقاء بالإنسان إلى طلب الكمال علما وعملا، إلى أداة لطلب الدنيا ونشر الجهل، و تثبيط العزائم والهمم، فانبرى علماء الأمة لإحياء الدين، والعودة بالتّصوف إلى النهج السنّي القويم منهم: عبد الرحمن بن أحمد الوغليسي البجائي الزواوي (ت786هـ)، وعبد الله محمد بن يوسف السنوسي التلمساني (ت895هـ)، ومحمد بن علي الخروبي دفين الجزائر (ت963هـ)، وغيرهم كثير ممن لا يسعنا الحديث عنهم في هذا المقال، ومنهم أيضا عبد الرحمن الأخضري صاحب "الجوهر المكنون في صدف الثلاثة فنون" وهو محل بحثنا وبالأخص مقامات التصوف الواردة في الأمثلة التي يضربها لشرح علوم البلاغة الثلاثة (المعاني، البيان، والبديع). (عبد الرحمن الجيلالي، 280/2)، فما هي المقامات الصوفية التي ركز عليها صاحب منظومة الجوهر المكنون؟ ولماذا خص هذه المقامات بعينها دون غيرها؟

2- تقديم تعريفي لمنظومة "الجوهر المكنون في صدف الثلاثة فنون":

2-1. صاحب المنظومة عبد الرحمن الأخضري:

هو العلامة الموسوعي أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الصّغيَّر بن محمد بن عامر الأخضري ويرجع نسبه إلى الصحابي الجليل "العباس بن مرداس بن أبي عامر السلمي. (الجيلالي، 1980، ص79)

ولد الأخضري في بنطيوس من قرى نواحي بسكرة، اختلفت الآراء حول تاريخ مولده ووفاته فقد حددهما عادل نويهض (910-953هـ/1512-1546م)، أمّا الزِرِكْلي فيرى (918- 983هـ/1512-1575م)، ويرجح أبو القاسم سعد الله أنّه كان (920- 953هـ).

نشأ الأخضري في بيت علم وفقه وصلاح، فقد أخذ العلم في بلدته عن والده الشيخ محمد الصغير، وعن أخيه الشيخ أحمد الأخضري، وتذكر بعض الروايات أنه قد سافر إلى قسنطينة وأخذ العلم على الشيخ عمر الوزان. كما طلبه بتونس وأخذه على مشائخ جامع الزيتونة، ولقد اشتغل بالتعليم والكتابة، توفي رحمه الله ب"كجال" بجهات ولاية سطيف ونقل جثمانه إلى مسقط رأسه، وقبره في زاوية بنطيوس ببسكرة.

رغم قصر حياة الأخضري حسب معظم الروايات فإنه قد أَثَّر على معاصريه والأجيال اللاحقة أيضا بكتبه وسلوكه، وخصوصا المتون التي نظمها وشرحها في المعاني والبيان والفرائض والحساب والمنطق والفلك و الأسطرلاب. (نويهض، 1980، ص14)

فقد أجمع معظم من ترجم له بأنه قد عاش ثلاثا وثلاثين سنة إلاّ أن البوعبدلي قال أنّ هناك "وثيقة تدلّ على أنّه توفي سنة إحدى وثمانين وتسعمائة، إذ عثر على تأليف له نظم فيه الأجرومية قال في ختامه:

"تمّ بحمد الله مَا قَصَدْنَا ❁ مِن نَظْمِ هذِه التِّي أَرَدْنَا
سَمَّيْتها بالدرة البَهِيّة ❁ فَهي لِما فِي أَصْلِها مَحوية
فكَان فِي محرّم الحرام ❁ بَدْءا وختتمنَا لِذَا النّظام

في عام إحدى وثمانين سنة" (البوعبدلي، 1978، ص25)

فمن التاريخ المذكور في نظمه يستنتج أنّه قد جاوز الخمسين سنة، لكن أبا القاسم سعد الله قال أنّ " هذا الاستدلال ضعيف لأن البيت قد يكون فيه تصحيف من الناسخ بقراءة "إحدى وثمانين" بدل" إحدى وثلاثين". (سعد الله، 1998، ص 501)

ومهما يكن فإنّ الأكيد أنّ عبد الرحمن الأخضري قد بدأ التأليف مبكرا حيث سجل في كتابه "السلم المنورق" فقال طالبا العذر من قارئه لصغر سنه:

"وَقُلْ لِمَنْ لَمْ يُنْصف لمقْصِدِي ❁ العُذْرَ حَقٌّ واجِبٌ للمُبْتَدِي

وَلِبِنيّ احْدَى وَعِشْرِينَ سَنَةً ❁ مَعْذِرَة مَقْبُولَة مَسْتَحْسَنَة

لا سِيَّمَا فِي عَاشِرِ القُرُون ❁ ذِي الجَهْلِ وَالفَسَادِ وَ الفُتُون".

(الأخضري، 2014، ص15)

وأمّا عن ميله للتصوف فهو قد تربى في حضن أسرة معروفة بالعلم والتصوف، فجده محمد عامر ألّف كتابا في الفتاوى، و أبوه محمد الصّغَيَّر أيضا كان من علماء عصره، فألف حاشية على الخليل، وكتابا في التّصوّف هاجم فيه من انحرف عن منهج الشرع القويم. فقد كان من تلاميذ "أحمد زروق الفاسي" (هو أحمد بن محمد بن عيسى البرنسي الفاسي الشهير بزروق (849– 899هـ) أقام بتامقره في معهد يحي العبدلي وألف فيه معظم كتبه التي شرح فيها علم التّصوف اقتداء بالغزالي، إذ شاهد زروق بعد إقامته بين تلمسان والجزائر العاصمة، وقسنطينة البدع التي أدخلت على التّصوف، فكرس حياته لتصحيح الوضع فألف كتبه المشهورة كقواعد التصوف، وأصول الطريقة، وكتاب البدع)*. ولعل هذا أول عامل مؤثر في اتجاه عبد الرحمن الأخضري نحو تصحيح مفهوم التّصوف، كما أنّه تتلمذ على يد الشيخ الخروبي ولقد ذكر أبو القاسم سعد الله فقال "لو لم يكن للخروبي من التلاميذ غير الأخضري لكفاه" (سعد الله، 1998، ص500)، وذلك لأنّه سار على دربه، وأكمل ما كان قد بدأه أستاذه بإعادة التصوف إلى نهج الدين القويم.

2-2. مؤلفات صاحب المنظومة:

ذكر البوعبدلي أنّ تآليف الأخضري "تربو على الثلاثين، وقد وقع عليها الإقبال من جامعات العالم الإسلامي كالأزهر والزيتونة والقرويين إذ دخلت برامج التعليم منذ ظهورها". (البوعبدلي، 1978، ص25)، ومن هذه المؤلفات:

- الدرة البيضاء في الفرائض والحساب.
- مختصر الأخضري في العبادات على مذهب الإمام مالك.
- نظم السلم المنورق في المنطق.
- نظم السراج في علم الفلك.
- منظومة الأخضري في الرد على المبتدعة.
- الرائية في مدح الرسول ﷺ.
- القصيدة اللامية في التّصوف.
- الجوهر المكنون في صَدَفِ الثلاثة فنون.

2-3. التعريف بمنظومة "الجوهر المكنون في صدف الثلاثة فنون":

كتاب "الجوهر المكنون في صدف الثلاثة فنون" منظومة يصل عدد أبياتها إلى مائتين وواحد وتسعين بيتا (291) وهي تلخيص لكتاب "التلخيص في علوم البلاغة" لجلال الدين محمد ابن عبد الرحمن القزويني (بوزياني، 2009، ص240)، ولقد اتبع نفس الترتيب وهذا ما أخبر به الأخضري في أرجوزته فقال:

"ملْتقِطًا من دُرَر "التَّلْخِيص" ❁ جوَاهِراً بَدِيعَةَ التَّخْلِيصِ

سلكتُ ما أَبْدَى من التّرتِيبِ ❁ وما ألوتُ الجُهْدَ فِي التَّهْذِيبِ"

(الأخضري، د.ت، ص22)

فهو لم يدّخر جهدا في تلخيصه دون إخلال، وتهذيبه قبل تقديمه لطلابه الذين دعوه لنظم يسهل عليهم دراسة وفهم علم البلاغة، فلبّى رغبتهم وأنجز وعده لهم:

"وقد دعَا بَعْضٌ منَ الطُّلابِ ❁ لرَجْزٍ يَهْدِي إِلَى الصَّوَابِ

فَجِئْتُهُ بِرَجْزٍ مُفِيدٍ ❁ مُهَذَّبٍ مُنَقَّحٍ سَدِيدٍ". (الأخضري، د.ت، ص 22)

وسماه بالجوهر المكنون لما يحتويه من جواهر ودرر مستورة لا تكشف إلا بالبحث والدراسة والفهم والوقوف عند أسرارها.

فنظم الجوهر المكنون مقسم إلى ثلاثة فروع كل فرع خصصه لفن من فنون البلاغة الثلاثة (المعاني، البيان، البديع)، ولقد بدأ نظمه بحمد الله تعالى الهادي لطريق الرشاد فقال:

"الحَمْدُ لله البديعِ الهَادي ❁ إلى بيَانِ مهْيَعِ الرّشَاد

أمدّ أرباب النهى ورسمَا ❁ شمسَ البيانِ فِي صدور العُلمَا

فأبْصَرُوا مُعْجِزَةَ القُرآنِ ❁ وَاضِحَةً بِسَاطِعِ البُرْهَانِ

وَشَاهَدُوا مَطَالِعَ الأَنْوَارِ ❁ وَمَا احْتَوَى عَلَيْهِ مِن أسْرَار"

(الأخضري، د.ت، ص21)

فالهداية من الله وحده قال تعالى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ [الكهف:17]، وهو الممد لأرباب العقول بالفهم والفتح، فرأوا معجزة القرآن ساطعة بالبرهان، وشاهدوا مطالع أنوار التجليات، وكشف لهم ما احتوى عليه من أسرار مخفيات، فرأوا بالبصر وشاهدوا بالبصيرة فارتقوا بالعلم، "فالنور يفيد كشف المعاني المغيبات حتى تتضح وتشاهد. والبصيرة تفيد الحكم وهو صحة ما شاهدته، والقلب له الإقبال عملا بمقتضى ما شاهدته البصيرة وله أيضا الإدبار". (السكندري، 1988، ص214)

فهو ينطلق من علم الظاهر المبني على العقل ليصل إلى علم الباطن المرتكز على الذوق، ويتضح هذا أكثر حين يدعو للقارئ بالنفع والرفعة فيقول:

"والله أرجو أن يكون نَافِعا ❁ لِكُلِّ مَنْ يقْرَؤُه رَافِعا". (الأخضري، د.ت، ص22)

فقد نظم رجزه لينتفع به من أراد التفنن في علم البلاغة وهذا الظاهر، ولكن أيضا كان يهدف إلى رفع الهمة والارتقاء في مقامات القرب من الله تعالى.

فهذه الجواهر تهدي لمعان من علوم البلاغة، وتوصل أيضا إلى لطائف ورقائق من علم التّصوف، إذ دعم شرحه للعلوم الثلاثة (المعاني، والبيان، والبديع) بأمثله يبين من خلالها مفهوم التّصوف، وبعض مقاماته.

3- مقامات التصوف في منظومة الجوهر المكنون:

3-1. التعريف بمقامات التصوف:

المقامات جمع المقام وهو "الإقامة، كالمدخل بمعنى الإدخال، والمخرج بمعنى الإخراج"(القشيري، 2005، ص91)، وهو عند أهل التصوف "مقام العبد بين يدي الله عز وجلّ، فيما يقام فيه من العبادات والمجاهدات والرياضات، والانقطاع إلى الله عز وجلّ".(الطوسي، 2008، ص66)، فالصوفي يبحث عن الصفاء، فهو يعمل على تزكية نفسه فيهذبها، ويروضها، فتتقلب من حال إلى حال، وينتقل بها من مقام إلى مقام لأنّ الأحوال مواهب والمقامات مكاسب، فالحال هبة من الله تعالى لعبده المريد، أمّا المقام فهو بذل الجهد في مجاهدة النفس بفطمها عن شهواتها الأرضية، وتخليها عن الصفات المذمومة، وتحليها بالأخلاق والفضائل التي تؤهلها للتدرج في مراحل الترقي الروحي.

فالأخضري ركز على بعض المقامات بعينها وأرشد إلي سبل الوصول إلى الحضرة الإلهية، فبعد حمد الله البديع الهادي صلى على خير خلق الله ثم على الصحابة (وكما نعلم فإنّ " ثُمَّ" تفيد الترتيب مع التراخي) فبدأ بالصّديق ثم بعمر الفاروق، ثمّ أبي عمرو إمام العابدين وهو الخليفة سيدنا عثمان بن عفان- رضي الله عنه- وسطوة الله إمام الزاهدين وهو سيدنا علي-رضي الله عنه- المشهور بالشجاعة والإقدام وهو الزاهد في الدنيا المعرض عن مغرياتها، ثمّ الصحابة ذوي التُّقَى والفضل والإنابه والبراعة، والحزم والشجاعة.

فالعبادة والزهد، والتقى والإنابة هي أسس ومقامات في التّصوف السني، الذي ينهل من القرآن الكريم والسنة الشريفة.

ويؤكد الأخضري على اتّصال الصوفي بالقرآن والعكوف عليه حفظا، وتلاوة ومدارسة حيث قال:

"مَا عَكَفَ القَلْبُ عَلَى القُرْآنِ ❁ مُرْتَقِيًا لِحَضْرَةِ العِرْفَانِ"(الأخضري، د.ت، ص22)

فلا عرفان ولا ارتقاء للحضرة الإلهية إلا إذا ارتبط قلب السّالك بالقرآن فتخلق بأخلاقه، والتزم بأوامره وابتعد عن نواهيه.

ومعنى الحضرة "الحاء والضاد والراء، إيراد الشيء، و وروده ومشاهدته، وقد يجيء ما يبعد عن هذا وإن كان الأصل واحد". (ابن فارس، 1979، ص75)

وفي الاصطلاح الصوفي فإنّ الحضرة الإلهية هي "كل اسم إلهي مع تجلياته". (الحكيم، 1981، ص327)

ويكون ذلك بذكر الله فقد ورد في الحديث الشريف" إنّ لله ملائكة يَطَوفون في الطُّرُق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قوما يذكرون الله تنادوا هلُّموا إلى حاجتكم، قال: فيحفُّونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا...". (البخاري، د.ت، ص1596)

فالذاكرون يذكرهم الله، وهم الذين يصلون من أقرب الطرق قال تعالى:﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: 152]

لذلك ينبه الأخضري إلى أهمية الذكر في المثال الذي يأتي به في الباب الأول: الإسناد الخبري فيقول:

" كَقَوْلِنَا لِعَالِمٍ ذِي غَفْلَةِ ❁ الذِّكْرُ مِفْتَاحٌ لِبَابِ الحَضْرَةِ". (الأخضري، د.ت، ص24)

فبالذكر تطهر النفس و تصقل مرآة القلب وتهيء لاستقبال التجليات، فهو مفتاح التمتع بالحضرة، ولا ينال هذه النعمة إلا من خاف مقام ربه، واستحضر عظمة خالقه، وذلك ما يفصله الأخضري في القدسية إذ يقول:

"وَاعْلَمْ بِأَنَّ طُرُقَ التَّطْهِيرِ ❁ كَثِيرَة عِنْدَ ذَوِي التَّنْوِيرِ

أَقْرَبُهَا طَرِيقُ الذِّكْرِ ❁ بِسُرْعَة يُزِيلُ كُلّ سِتْرِ

لكن بِشَرْطِ الخَوْفِ والحَضور ❁ مَعَ ادِّكارِ هَيْبَةِ المذْكُورِ"(بوزياني، 2009، ص171)

فالأخضري يقدم وصفة مضمونة لمن يبغي الوصول إلى مقام القرب وهي تعلق القلب بالذكر فقال:

"مِنْ بَعْدِ إِبْهَامٍ، وَالاخْتِصَارِ ❁ كـ" بَلَغَ المولَعُ بِالأَذْكَارِ". (الأخضري، د.ت، ص31)

وهو يركز على الذكر لأنّه من أجلّ الأعمال التي تزيد العبد إيمانا وتعلقا بخالقه، فالذكر يشمل جميع الطاعات، وبه تقام العبادات، فالمداومة على الذكر تمنح الصفاء للقلب، وترفع الحجب، ويجلي البصيرة، ويرتقي بالعبد ويدنيه من ربّه فينعم بقربه، لذلك قال: "بلغ المولع بالأذكار" ولكن للأذكار شروط لم يكن يراعيها بعض من يدعي التصوف فنجد الأخضري يقف للرد عليهم حتى لا تشوه صورة التصوف، ولا يحيد عن مساره فيكون دافعا للارتقاء بالإنسان، وتخليصه من الجهل، يقول الأخضري في رده على المبتدعة:

"مِنْ شُروطِ الذكْرِ أَنْ لاَ يُسْقِطَ ❁ بَعْضُ حُرُوفِ الاسْمِ أَوْ يُفْرَطَ

فِي البَعْضِ مِنْ مَنَاسِك الشَّرِيعَهْ ❁ عَمْدًا فَتِلْكَ بِدْعَةٌ شَنِيعَهْ

والرَّقْصُ والصُّراخُ والتَّصْفِيقُ ❁ عَمْدًا بِذِكْرِ اللهِ لَا يَلِيقُ

وَ إِنَّمَا الْمَطْلُوبُ فِي الأَذْكَارِ ❁ الذِّكْرُ بِالخُشُوعِ وَ الوَقَارِ"

(بوزياني، 2009، ص174)

فهو يؤكد على الالتزام بشروط الذكر، وعدم إسقاط حرف من لفظ الجلالة،فتلك بدعة شنيعة، وكذلك عدم القيام بأعمال منافية للشرع، لأنّ الذكر الموصل لصفاء النفس، وتطهير القلب هو الذكر بالخشوع والوقار.

" وَجُملةً: لسَبَبٍ أوْ تقويه ❁ كـ" الذِّكْرُ يَهْدِي لِطَرِيقِ التَّصْفِيهْ" (الأخضري، د.ت، ص30)

فالذكر يزيل صدأ القلب ويصفيه لذلك فهو ركن أساسي " في طريق الوصول وهو منشور الولاية فمن ألهم الذكر فقد أعطي المنشور ومن سلب الذكر فقد عزل" (الحسيني، 1937، ص21)، فالمؤمن لا يغفل عن ذكر الله في كل وقت وحين فهو من يحميه من نفسه ومن الشيطان قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف:201].

فبالذكر تعود النفس لربّها مستغفرة، تائبة، مستعينة، حامدة، شاكرة فتفوز برضا الله،

فالمتصوف لا يكون عارفا إلا إذا كان" عالما بالشريعة وهو يدعو النّاس إلى العلم والعمل به، ويبيّن لهم كيفية ذلك، ويسلكهم في طريق المقامات والأحوال الإلهية بالحال والقال والهمّة". (النابلسي، 1985، ص287)

فالصوفية إن ارتبطت بالشرع فنعم الطريقة الموصلة للمراتب العليا،يقول الأخضري:

"كَ "حَبَّذَا طَرِيقَةُ الصُّوفِيَّه ❁ تَهْدِي إِلَى المرْتَبَةِ العَلِيَّه"

(الأخضري، د.ت، ص26)

ومن أهم مقامات التصوف التي يقف عليها السالك إلى الله ليصل إلى المراتب العلية مقام التوبة.

3-2. مقام التوبة:

يؤكد الأخضري على مقام التوبة ويرى أنّ ملازمته أساس الطريق إلى الله، حيث يقول:

"وَعَكْسُهُ يُعْرَفُ بـ (الإِطْنَابِ) ❁ كَ "الْزَمْ – رَعَاكَ اللهُ– قَرْعَ البَابِ". (الأخضري، د.ت، ص33)

قال عزّ وجل: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُون﴾ [النور: 31]، لذلك كان مقام التوبة أول مقامات السالكين وهي الرجوع إلى الله بقرع باب مغفرته ورحمته، فالواجب دوام التوبة من الخطرات والغفلات ومن الزلات التي لا يسلم المرء منها في هذه الدنيا، فالله سبحانه يحب التوابين قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِين﴾ [البقرة:222].

فالمؤمن يقف في مقام التوبة ليتطهر مما يعلق به من درن الدنيا، فتصفو نفسه وتسمو في مقامات القرب من الله عز وجل فالتوبة كما قال أبو الحسن النوري هي" أن تتوب من كل شيء سوى الله تعالى" وهو نفس المعنى الذي يرمي إليه الأخضري حين يقول:

"كَ"اخْلَعْ نِعَالَ الكَوْنِ كَيْ تَرَاهُ ❁ وَغضَّ طَرْفَ القَلْبِ عَنْ سِوَاهُ". (الأخضري، د.ت، ص37)

فالمتصوف هو من يخلع الدنيا من قلبه ويتوب إلى ربه، فلا يشغله عن ذلك شارد ولا وارد، فيصبح قبله لله وحده، وأن يسارع إلى التوبة والرجوع إن غفل. قال ذو النون المصري حين سئل عن التوبة: "توبة العوّام من الذنوب وتوبة الخوّاص من الغفلة"(الطوسي، 2008، ص68). فالمتصوفة هم المنشغلون بتأدية

فرائض الله المخلصون، وهم الذين يجاهدون الهوى والشيطان، ويقفون في مقام التوبة نادمين، متوسلين، منيبين راجين عفو الله. فمن انشغل بدنياه عن آخرته، ولم يلزم التوبة فهذا ليس من الصوفية.

يقول الأخضري:

"والفعلِ والحرفِ كـ: "حَالِ الصُّوفِي ❁ يَنْطِقُ أَنَّهُ المُنِيبُ المُوفِي". (الأخضري، د.ت، ص38)

3-3. مقام المجاهدة:

إنّ سالك الطريق عليه أن يستعد للجهاد الأكبر جهاد النفس وأن يشحذ همته، بالخوف والورع والزهد ليتسنى له الارتقاء، يقول الأخضري في الباب الخامس:

لِـ (قَلْبٍ)، أَوْ (تَعْيِينٍ)، أَوْ (إِفْرَادٍ) ❁ كـ "إِنَّمَا تَرْقَى بِالاسْتِعْدَادِ". (الأخضري، د.ت، ص 31)

فبقدر استعدادك يكون ارتقاؤك، فالنفس مجبولة على حب الشهوات، وتفتنها المغريات، وتركن للتكاسل وحب الظهور والمباهاة، وتنفر من الجدّية والانضباط فلا يرتقى إلى سماء العرفان إلا من أخذ نفسه بالمجاهدة، وهذا ما يبينه في قوله:

" نَحْوَ:"ارْتَقَى إِلى سَمَاءِ القُدْسِ ❁ فَفَاقَ مَنْ خَلَّفَ أَرْضَ الحِسِّ". (الأخضري، د.ت، ص38)

فالارتقاء يستدعي التخلي عن التمسك بأرض الحس من ماديات فانية يتكالب عليها الغافلون من الناس لذلك يقول ابن عطاء الله السكندري" أُخرج من أوصاف بشريتك عن كل وصف مناقض لعبوديتك. لتكون لنداء الحق مجيبا ومن حضرته قريبا" (السكندري، 1988، ص168)، فمن ملكته نفسه وجرى وراء شهواته فهذا لا يمت للتصوف بصلة.فالمجاهدة هي حمل النفس على ترك هواها، والعلل القلبية الحاجبة عن رؤية الحق، والسمو بها بالتماس فضائل الأخلاق والأعمال.

فالمجاهدة تكون بتربية النفس وتزكيتها بكبح شهواتها، وتخليها عن الصفات المذمومة، وتحليها بالصفات التي ترقى بها إلى الحضرة الإلهية وتتنعم بالقرب من الحق تبارك وتعالى. ويفصل ابن خلدون في المجاهدة (ابن خلدون، 1996، ص54)، فيجعلها ثلاثة أقسام.

■ **مجاهدة تقوى:** وهي الوقوف عند الحدود وخشية الله. ويعبر عن ذلك الأخضري في الفن الثالث: علم البديع في الضرب اللفظي بقوله:

"(مُكَرَرًا) (مُجَانِسًا) و(مَا الْتَحَقْ) ❁ يَأْتِي كَ" تَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَق" (الأخضري، د.ت، ص 43)

■ **مجاهدة استقامة:** فالتصوف تجربة روحية تعالج النفس الأمارة بالسوء فتهذبها بالطاعات، وتروضها حتى تستقيم على أمر الله، فتحفظ الحقوق وترعى الواجبات حتى " تصير لها آداب القرآن والنبوة بالرياضة والتهذيب خلقا جبلية " وهو في ذلك يترقى في المقامات، ويعين الصوفي على الاستقامة مصاحبة الأخيار الذين يلتقون في حب الله ولله وفي ذكره والابتعاد عن كل ما يلهي القلب ويبعد عن حضرة القرب، فقد سميت الصوفية" لصفائها من كدر الأغيار، وخروجها من مراتب الأشرار" (الطوسي، 2008، 258) فلا صلاح للنفس إلاّ إذا قومت أخلاقها، وفطمت عن طباع السوء التي تدعوها إليها النفس الأمارة، لذلك يحذر الأخضري من مجالسة الفاسقين الذين شغلتهم ملذات الدنيا، فأطاعوا أهواءهم، ونشروا البدع والضلالات، فصحبتهم مآلها الهلاك في الدنيا والآخرة.

"كَ" عَنْ مُجَالِسِ الفُسُوقِ بُعْدَا ❁ فَلَا تُصَاحِب فَاسِقا فَتَرْدَى". (الأخضري، د.ت، ص33)

لأنّ الصوفية ارتقاء بالأخلاق إلى أعلاها وأسماها فهي " الدّخول في كلّ خُلق سني والخروج من كل خلق دني" (الطوسي، 2008، ص50)، فالمتصوف متلبس بالفضائل ناشرها بين الناس متتبعا نهج المصطفى صلى الله عليه وسلم فمن ظهر منه غير ذلك فهو مدّعي وجب الابتعاد عنه، يقول الأخضري:

"بـ(إنْ)، وَ(كَانَ)،لاَمٍ، أوْ بَاء، يَمِينْ ❁ كَ:(مَا جَلِيسُ الفَاسِقِينَ بِالأَمِينْ"(الأخضري، د.ت، ص25)

■ **مجاهدة كشف واطلاع:** وهي أن يتوجه السالك بكليته إلى الحق تبارك وتعالى بإخماد شهوات نفسه والتغلب عليها بالمجاهدة، فتسمو على نزعاتها الإنسانية، وتقوى روحانياتها.يقول الأخضري في القدسية:

"ومَن أجَاد الصَّقْلَ بالمجَاهَدَهْ ❁ رَقَى مَقَامَ الكَشْفَ وَالمشَاهَدَهْ" (بوزياني، 2009، ص157)

3-4. مقام الزهد:

يذكر أن أول ما بدأ من التصوف هو الزهد وذلك تأسيا بالرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته رضوان الله عليهم، فالزهد عند الصوفية "مقام شريف، وهو أساس الأحوال الرضية والمراتب السنية" (الطوسي، 2008، ص157)

يقول الأخضري في الباب الثالث: المسند

"وأفردوه لانعدام التقويه ❁ وسبَبٍ ك" الزهد رأس التزكية". (الأخضري، د.ت، ص29)

لا تتحقق تزكية النفس إلا بالزهد في الدّنيا ومتاعها فهو الأساس والمنطلق، فتعلق القلب بالله، وإفراغه ممّا سواه هو السبيل للارتقاء، فقد ذكر بن حجر العسقلاني في الحديث الشريف عن أنس بن مالك أن النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لقِيَ رجُلًا يُقالُ له :حارثةُ، في بعضِ سِكَكِ المدينةِ، فقال كيف أصبَحْتَ يا حارثةُ؟ فقال: أصبَحْتُ مُؤمِنًا حقًّا، قال: إنَّ لكلِّ إيمانٍ حقيقةً، فما حقيقةُ إيمانِكَ؟ قال: عزَفَتْ نَفْسي عنِ الدُّنيا؛ فأظمَأْتُ نهاري، وأسهَرْتُ لَيْلي، وكأنِّي بعَرْشِ ربِّي بارزًا، وكأنِّي بأهلِ الجنَّةِ في الجنَّةِ يتنعَّمونَ، وأهلِ النَّارِ يُعذَّبونَ، فقال النَّبيُّ ﷺ: أصَبْتَ فالزَمْ، مُؤمِنٌ نوَّر اللهُ قَلْبَه".

ولهذا عمل السلف الصالح على مجاهدة النفس ومغالبة الهوى والزهد في متاع الدنيا القليل، لذلك نجد الأخضري لا يفوت الفرصة حين ذكر الصحابة بأن ينبه للصفات التي وصفو بها، والمقامات التي سارو عليه، حتى تكون نبراسا لمن يبغي التصوف للقرب من الله صدقا "وإنّما كان الزهد تصوفا،لأنّه من دلائل الصدق وقوة العلاقة الروحية" (مبارك، 2012، ص28) بين العبد وربه، فالصوفي الحقيقي هو من انتصر على نفسه فأمات شهواتها، و أخرج الدنيا من قلبه، فتساوى عنده بقاؤها أو فقدها.

3-5. مقام العبودية:

يقول الأخضري في الباب الأول فيقول:

"إسنَادُ فِعْلٍ أوْ مُضَاهِيه إلَى ❁ صَاحِبِه ك (فَازَ مَنْ تَبَتَّلا) (الأخضري، د.ت، ص25)

فالانقطاع إلى الله والإنابة إليه طريق الفوز بمحبة الله وقربه قال تعالى: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ [المزمل:08]

ويصف الأخضري أهل التّصوف بقوله:

"كَ " التَائِبُونَ العَابِدُونَ الحَامِدُونَ ❁ السَّائِحُونَ الراكِعُونَ السَّاجِدُونَ". (الأخضري،دت، ص46)

فالعبودية" معانقة ما أمرت به، ومفارقة ما زجرت عنه". (القشيري، 2005، ص23.)

إن مقام العبودية للحق تبارك وتعالى أعلى ما يسعى المتصوف إلى تحقيقه لأنه هو الهدف من خلق الخلق قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:56].

يعرف أبو الحسن الشاذلي التصوف بقوله: هو" تدريب النفس على العبودية؛ وردها لأحكام الربوبية" (صقر، 1970، ص98) مع الله فيما يقوم به من أعمال فتحقيق العبودية يكون" بدوام العمل لله تعالى ظاهرا وباطنا" (السهروردي، د ت، ص270). ولقد أجملوها في خصال أربع وهي: "الوفاء بالعهود، والحفظ للحدود، والرضا بالموجود، والصبر على المفقود" (القشيري، 2005، ص270)، فالصوفي يسعى للوفاء بعهده مع الله، وحفظه لحدود الله، والرضا بما قسم الله له، وعدم الجزع لما فقد، وهذه مراتب توصل إلى المرتبة العالية.

فالتصوف "رعاية حسن الآداب مع الله في الأعمال الباطنة والظاهرة بالوقوف على حدوده مقدما الاهتمام بأفعال القلوب مراقبا خفاياها".

فمن حقق مقام العبودية لله وحده بتخلصه من شواغل النفس ومن أمراض القلوب ظاهرها وباطنها فهو فائز بالقرب. يقول الأخضري في الباب الثالث:

" تَنْبِيهٍ، أوْ تفاؤلٍ، تَشَوُّفٍ ❁ كَ " فازَ بالحَضْرةِ ذُو تَصَوُّفِ".(الأخضري، د.ت، ص30)

فالذكر والانقطاع لعبادة الله وحده والتمسك بأوامره واجتناب نواهيه، و التوبة والاجتهاد في تهذيب النفس والارتقاء بها هي مقامات وقف عندها الأخضري في "الجوهر المكنون".

فهو أراد بنظمه أن يشير للتصوف حتى يفتح شهية القارئ للبحث والتعرف أكثر على أهل الطريق فيتسنى له تميز الأصيل من الدّخيل.

"وَأَنْ يَكُنَ فَاتِحًا لِلْبَابِ ❁ لِجُمْلَةِ الإِخْوَانِ وَ الأَصْحَابِ".(الأخضري، د.ت، ص22)

فهو يحث على مواصلة البحث في هذه الفنون التي افتتحها، وعلى محبّ العلم أن يشتغل بالنهل من منابعه، وأن يسعى لتزكية النفس والارتقاء بها إلى مقام الإحسان.

4– خاتمة: وممّا سبق يتضح أنّ الأخضري الذي عاش التجربة الصوفية روحيا قد جسدها عمليا أيضا، فربط العلم الظاهر بالباطن فكان مثالا حيا للصّوفي العالم العارف، والذي ينطلق من الشريعة ليصل إلى الحقيقة، وأنّه سعى لتصحيح المفاهيم التي كانت سائدة في عصره فأعاد لمقامات التّصوف صفاءها بحرصه على الوقوف على غاياتها وإن كان من خلال أمثلة تزيل الإبهام عن الدرس البلاغي، وعن الذوق العرفاني.

ولأنّ مايميز القرن العاشر هو انتشار البدع كما ذكر الأخضري في منظومته فإنّه قد ركّز على مقامات معينة وذلك نظرا لأهميتها، ولما شابها من انحراف عن الشرع، فابتدأ في الباب الأول بالذكر لأنّه أساس العبادات كلها، فهو ركن مهم فلا ينبغي أن يستهان بشروطه، كما وقف عند مقام التوبة لأنه هو نقطة الانطلاق في الطريق إلى الله، وبيّن لمن يبغي حضور الأنوار والتّجليات أن يصقل قلبه بالمجاهدة، وليس مثلما كان يعتقد البعض ممن انغمسوا في الشهوات فلم يأخذوا من التّصوف إلا مرقعاته، كما جعل مقام الزهد رأس التزكية بتفريغ القلب من حبّ الدنيا وعدم الجزع لها أو عليها، ولتحقيق مقام العبودية أرشد السّالك إلى ضرورة إخلاص النية فتكون أعماله لله ظاهرا وباطنا، فالأخضري شحذ همته لمحاربة البدع التي عادت بالأمة إلى عصور الجهل والظلام، وخدمة المال والشيطان، فسعى لإيقاظ النفس بالذكر، وأخذها بالمجاهدة، ودوام التوبة والإنابة لله، والاستقامة على أمر الله، والزهد في ملذات الدنيا، وتحقيق العبودية لله وطلب رضاه، فهذا النظم ما هو إلا فاتحا للباب في هذه العلوم (المعاني والبيان والبديع) بالإضافة إلى علم التّصوف الذي كرّس له الأخضري منظوماته لتصحيح مفهومه، والارتقاء بمعانيه بالإشارات والتلخيص كما في رجز الجوهر المكنون، أو بالشرح والتّفصيل مثل منظومته القدسية التي ردّ فيها على المبتدعة.

فالأخضري في " الجوهر المكنون في صدف الثلاث فنون" اختزل نظاما معرفيا ومنهاج السلوك في الفكر الصوفي بالتركيز على مقامات التوبة، الزهد، المجاهدة، التقوى، العبودية، وذ لك لأنّه يرى أنّ التصوف تزكية للنفس وتنقيتها من الشوائب، وارتقاء بالأخلاق، وترفع عن ملذات الدنيا والزهد فيها،

وتخلية القلب من شواغلها، وتحليته بذكر الله، والتبتل إليه. وفي هذا النظم تجلت عبقرية الأخضري، إذ جمع بين تعليم علم البلاغة وتصحيح مفهوم التصوف ومقاماته.

5– قائمة المصادر والمراجع:

1. الأخضري، عبد الرحمن بن محمد. (2014). السلم المنورق، (ط2)، إسطنبول: المكتبة الهاشمية
2. الأخضري، عبد الرحمن بن محمد. (د.ت). الجوهر المكنون في صدف الثلاثة فنون، (د.ط)، تحقيق: محمد بن عبد العزيز نصيف، مركز البصائر للبحث العلمي.
3. البخاري، أبي عبد الله محمد بن إسماعيل. (د.ت). صحيح البخاري، باب فضل ذكر الله عزّ وجل، دمشق: دار ابن كثير.
4. بوزياني، الدراجي. (2009). عبد الرحمن الأخضري العال الصوفي الذي تفوق في عصره، ط2، الجزائر: وزارة الثقافة الجزائرية.
5. البوعبدلي، المهدي. (1978). عبد الرحمن الأخضري وأطوار السلفية في الجزائر، مجلة الأصالة، الجزائر: وزارة الشؤون الدينية الجزائر، عدد 53.
6. الجيلالي، عبد الرحمن بن محمد. (1980). تاريخ الجزائر العام، ج3، بيروت: دار الثقافة.
7. الحسيني، ابن محمد بن عجيبة الحسيني. (1937). معراج التشوف إلى حقائق التّصوف، صححه وعلق عليه: بن عبد الرحمن الحسني التلمساني، (ط1)، دمشق: مطبعة الاعتدال.
8. الحكيم، سعاد. (1981). المعجم الصوفي، (ط1)، بيروت: دار دندرة للطباعة والنشر.
9. الزركلي، خير الدين. (1986) الأعلام، (ج3)، (ط7)، بيروت: دار العلم للملايين.
10. سعد الله، أبو القاسم. (1998). تاريخ الجزائر الثقافي، (ج1)، (ط1)، بيروت: دار الغرب الإسلامي.
11. السكندري، ابن عطاء الله. (1988). الحكم العطائية، شرح: ابن عباد النفري الرُّندى، تحقيق: محمد عبد المقصود هيكل، القاهرة: مركز الأهرام للترجمة والنشر.
12. السهروردي، أبو حفص شهاب الدين. (د.ت). عوارف المعارف، (ج1)، القاهرة: دار المعارف.
13. صقر، حامد إبراهيم محمد. (1970). نور التحقيق في صحة أعمال الطريق، (ط2)، القاهرة: مطبعة دار التأليف.
14. الطوسي، سراج الدين. (2008). اللّمع في التّصوف،القاهرة: شركة القدس للتجارة.
15. ابن عاشر، عبد الواحد. (1925). متن ابن عاشر في مذهب مالك رضي الله عنه، (د.ط)، الجزائر: المطبعة الثعالبية ردوسي قدور بن مراد.

16. عبد الرحمن، ابن خلدون. (1996). شفاء السائل وتهذيب المسائل، تحقيق: محمد مطيع الحافظ، دمشق: دار الفكر.
17. عبد الرحمن، بن محمد الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، (ج2)، بيروت: دار مكتبة الحياة.
18. ابن فارس، أحمد. (1979). معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، (مادة حضر)، ج2، (د.ط)، بيروت: دار الفكر.
19. القشيري، أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن. (2005). الرسالة القشيرية، تحقيق: خليل المنصور، (ط3)، بيروت: دار الكتب العلمية.
20. مبارك، زكي. (2012). التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.
21. النابلسي، عبد الغني إسماعيل. (1985). أسرار الشريعة أو الفتح الرباني والفيض الرحماني، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، بيروت: دار الكتب العلمية.
22. نويهض،عادل. (1980). معجم أعلام الجزائر– من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، (ط2)، بيروت: مؤسسة نويهض الثقافية.